

## إمارة الأدارسة

### مقدمة

قامت الدولة الإدريسية في شمال المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري في وقت كانت فيه البلاد منقسمة بين إمارات وتجمعات قبلية عديدة، وعرفت حضور مذاهب متعددة، كما كانت ملجأ المطرودين والمغامرين من الذين لفظهم المشرق. وكان إدريس الأول واحدا من الذين خرجوا من الحجاز فرارا من العباسيين فوجد في المغرب من استقبله وساعده على تأسيس إمارة جديدة تحقق طموحات الطرفين. وقد نجح الأدارسة في ضم معظم أراضي المغرب؛ على الأقل، تحت غطاء حضاري متشابه مما أعطاهم طابعا مشتركا أو متشابهها، بالرغم من عدم وجود وحدة سياسية في معظم الأوقات. وقد مرت الدولة الإدريسية بمراحل ثلاث تشكلت خلالها شخصيتها ومعها شخصية المغرب الحضارية مما جعل الكثيرين يعتبرونها مؤسسة للدولة المغربية. وسنتناول الموضوع من خلال النقط التالية:

#### 1- التطور السياسي للأدارسة

##### 1-1-1- طور التأسيس

##### 1-2-1- طور الانقسام والاستقرار

##### 1-3-1- طور المنفى والتبعية

#### 2- ملاحظات حول الإنجازات الحضارية للأدارسة

### خاتمة

#### 1- التطور السياسي للأدارسة

##### 1-1-1- طور التأسيس والقوة

تحول العلويون إلى المعارضة السياسية بعد مقتل علي وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان مكرها، وواصلوا النضال بإصرار لاستعادة حقهم في الخلافة بالنقاش والجدال والعمل السياسي ولكن أيضا بالسلاح. وتوالت ثوراتهم على الأمويين (الحسين بن علي في 61هـ- زيد بن علي في 122هـ). وعندما قامت الدعوة العباسية اعتقد الكثيرون ومنهم العلويون أنها تدعو لآل علي، لكن نجاحها كشف أنها كانت تعمل لصالح بني عمهم من أبناء العباس. لذلك واصل آل علي المعارضة ودخلوا في مواجهة سياسية وعسكرية مع العباسيين دشنها محمد النفس الزكية عام 145هـ فقتل وأخاه إبراهيم، وأعقبها تضيق على آل البيت وفرض الإقامة الجبرية على وجوههم مما زاد من غضبهم

وإصرارهم على المقاومة. وفي عام 169هـ؛ وعلى إثر خلاف مع عامل المدينة، ثار الحسين بن علي بن الحسن بن حسن بن علي ومعه كل آل البيت وشارك في الثورة إدريس بن عبد الله وأخوه يحي فأسفرت المواجهة في معركة فخ عن هزيمة العلويين وقتل زعاماتهم ومطاردة الباقين مما اضطرهم إلى الفرار. وممن فروا إدريس وأخوه فقصد الأول المغرب والثاني بلاد فارس.

نجح إدريس بن عبد الله في الوصول إلى المغرب بعد مغامرات خطيرة عبر مصر وإفريقية مرفوقا بمولاه راشد. ووصل إلى منطقة ويلي حيث قبيلة أوربة الزناتية التي يتزعمها إسحاق بن عبد الحميد الأوربي الذي قيل إنه كان معتزلي المذهب. وبعد مفاوضات قبلت القبيلة بتبني قضية إدريس ومساعدته على استرجاع حقه المغتصب فبايعته أميرا. وقد استفاد؛ دون شك، من التقليد الذي صار للمغاربة في تعيين الأجانب المشاركة على رأس إماراتهم (بنو رستم- الأمويون- برغواطة- بنو صالح). وبويع إدريس إماما في رمضان 172هـ من طرف قبائل أوربة وزناتة وزواغة ولماية ولواتة وسدراته وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة...

بدأ إدريس عمله التنظيمي فاتخذ راشد وإسحاق الأوربي وزيرين ومستشارين واستعان بباقي شيوخ القبائل، وكون جيشا قويا من القبائل المبايعة. وبسرعة انطلق في العمل العسكري ونظم حملتين سنتي 173هـ وثالثة في السنة الموالية، واتجهت في اتجاهات أربع شرقا نحو تازة وتلمسان وشمالا نحو الريف وجنوبا نحو جبال فازاز (الأطلس المتوسط) وغربا نحو تامسنا، وتمكن من اقتطاع مجال وخلق إمارة شملت شمال المغرب. ويلاحظ أن توسعته اتجهت نحو المحاور الطرقية الرئيسية والمناطق الفلاحية الغنية (سايس- تادلة- تامسنا) وبعض المناجم (منجم نحاس ناحية تازة).

وفي الوقت الذي كان إدريس يستعد للتوسع أكثر تحركت مخاوف العباسيين فتآمروا لقتله، فأرسلوا جاسوسا لهم يسمى سليمان بن جرير الشماخ فحل ضيفا على إدريس، فأظهر حبا كبيرا لآل البيت ودافع عنهم أمام الجموع، فأقنع إدريس بمحبته ومساندته فقربه منه. فاستغل سليمان الفرصة ليقتله بالسم في عطر أو سنون ويفر إلى المشرق بعد فشل راشد في قتله سنة 177هـ. ولم يترك إدريس ابنا، لكنه ترك زوجه كنزة حاملا، فاتفق زعماء القبائل على انتظار وضعها فإن وضعت ولدا ربوه ثم بايعوه وإن كان أنثى نظروا لأنفسهم. فلما وضعت كنزة كان الذكر فسمي باسم أبيه، فرباه راشد وبعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي بعد 186هـ.

لما بلغ إدريس الثاني الحادية عشر من العمر بويع سنة 187هـ. ويظهر أن حاشية إدريس شهدت قدوم عناصر عربية من الأندلس والمشرق (قيسية- أزدي- خزر- مدلج- يحصب)

فقرّبها واتخذها حاشية على حساب البربر. وهكذا اتخذ مصعب بن عمير الأزدي (الملجوم) وزيراً وخلق حرساً من فرسان العرب. وقد يكون هذا الانقلاب وراء تغيير علاقته بالبربر فقتل إسحاق الأوربي عام 192هـ وفر منه وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري إلى ابن الأغلب بالقيروان.

توجهت أعمال إدريس الثاني في نفس اتجاه أعمال والده لكنها كانت أكثر عمقا. ففي سنة 197هـ غزا نفيس وأغامت وضمهما، وفي سنة 199هـ استعاد تلمسان، وربما وصل إلى درعة وسجلماسة وسوس (تمدولت بناها أحد أحفاده- نقود إدريسية سكت بتدعة). وهكذا صارت دولة الأدارسة تضم كل أراضي المغرب عدا تامسنا وسجلماسة ونكور. ومرت أخرى تحركت مؤامرات العباسيين على يد خليفتهم على إفريقية ابن الأغلب لتغتاله عام 213هـ/828م. وبذلك انتهى الطور الأول؛ طور التكوين والقوة، بمغرب موحد، فهل سيبقى كذلك في ظل الخلفاء؟

## 2-1 - طور النمو والازدهار الحضاري (213-309هـ/828-321م)

مات إدريس الثاني وترك خلفه اثنا عشر ولدا أكبرهم محمد فلجاً الإخوة الكبار إلى تقسيم الدولة فيما بينهم بناء على نصيحة جدتهم كنزة على أن يبقى محمد الإمام ويستقر في فاس. وقد كانت نتيجة التقسيم:

- القاسم: سبتة وطنجة ووقلعة حجر النسر والبصرة وتطوان.
- عمر: بلاد صنهاجة والهبط وغمارة.
- داود: بلاد هوارة وتسول وتازة.
- عبد الله: أغامت وبلاد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى.
- يحيى: أصيلا والعرائش وبلاد زواغة.
- عيسى: شالة وسلا وأزمور وتامسنا.
- أحمد: مكناسة وتادالا وفازاز.
- سليمان بن عبد الله ابن عمهم: تلمسان.

احتفظ محمد بالإمامة وكان على الإخوة أن ياتمروا بأمره. لكن الأحداث تطورت بشكل مختلف، ذلك أن الإخوة كانوا يتصرفون كأنداد لأخيهم وأصحاب حق في الإمامة واستغلّتهم الزعامات المحلية لتحقيق طموحاتها. وسرعان ما تمرد عيسى والقاسم فتدخل عمر بأمر أخيه لتأديبهما وإخضاعهما، وإذا كان قد نجح في مهمته وضم أراضيها، فإن ذلك كان فقط مقدمة لثورات وانشقاقات بين أبناء البيت الإدريسي مما زاد من تفكك الدولة وضعفها سياسيا.

توفي محمد عام 221هـ وخلفه ابنه الطفل علي تحت الوصاية ثم انتقل الحكم إلى أخيه يحي عام 234هـ وخلفه ولده يحي بن يحي الكثير المجون، فثارت عليه العامة في فاس فطردته ليموت كمدا وأسفا. فانتقلت الإمامة إلى فرع عمر بن إدريس في شخص علي بن عمر واضطر تحت ضغط الثائر عبد الرزاق الفهري الخارجي إلى ترك العاصمة فاس واللجوء إلى أوربة. فاستدعى السكان يحي بن القاسم العدم وبإيعوه حتى وفاته عام 292هـ، فعادت الإمامة إلى فرع عمر في شخص يحي بن إدريس بن عمر، فساعده حزمه وعلمه على إعادة السيطرة على أراضي الدولة حتى مجيء مصالة بن حبوس القائد الفاطمي.

انهزم يحي بن إدريس أمام مصالة واضطر إلى بيعته والاحتفاظ بحكم مدينة فاس، بينما عين موسى بن أبي العافية المكناسي على باقي المغرب. وفي عام 309هـ، عاد مصالة فقبض على يحي ونفاه مع أسرته الكبيرة إلى أصيلا. ولم تقلح محاولات الأدارسة في استعادة سلطانهم لأن ابن أبي العافية أحكم سيطرته على البلاد وضيق عليهم وطاردهم. فانتهى عهد الأدارسة في فاس.

إذا كانت هذه المرحلة مليئة بالصراعات السياسية فقد عرفت ازدهارا اقتصاديا واجتماعيا انعكس على حياة الناس كما يثبت هذا النص لابن أبي زرع:

"وفي أيامه [يحي بن محمد بن إدريس] كثرت العمارة بفاس، وقصد إليه الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنى الناس الأرباض بخارجها وبنى الأمير يحي بها الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم" (الأنيس ص.53-54).

وعرفت الأنشطة الفلاحية بدورها تزايدا كبيرا، كما نشطت التجارة مع الجيران خاصة تامسنا وتاهرت وسجلماسة والسودان والأندلس.

### 1-3- طور النفي والتبعية (309-375هـ/921-938م)

خلال هذه المرحلة تجمع الأدارسة في نقطتين رئيسيتين هما حجر النسر قرب طنجة كمركز رئيسي ومدينة البصرة، وانقسموا إلى فرعين متنافسين آل محمد وآل عمر. وتقلبوا في ولائهم بين القوتين المتنافستين على المغرب وهم الأمويون في الأندلس والفاطميون في مصر سالكين طريقا انتهازيا مما عرضهم غير ما مرة للعقاب. وبعد فترة خفوت كبير أحيى القاسم بن محمد بن القاسم جنون (ت337هـ) الإمارة بعد وفاة ابن أبي العافية وحالف الفاطميين. وخلفه أبو العيش أحمد بن القاسم (ت348هـ) وحالف الأمويين ووسع نفوذ الأدارسة. وخلفه أخوه الحسن كنون وتعاون مع جوهر الصقلي الذي اجتاحت المغرب، فأغضب الأمويين فحاربوه وأجبروه على الاستسلام عام 363هـ فنقل إلى قرطبة في حفاوة وهدمت حجر النسر. وبعد سنتين نفي إلى إفريقية فالتحق بالعبيدي نزار بن محمد بالقاهرة، فقرر مساعدته على استعادته حكمه بتكليف آل زيري بذلك. واجتاحت المغرب عام 374هـ

ودخل فاس وضم مناطق واسعة، لكن المنصور بن أبي عامر الحاجب الأموي تدخل فهزمه وقتله في السنة الموالية واطعاً نهاية للدولة الإدريسية بالمغرب.

## 2- ملاحظات حول إنجازات الأدارسة

### 1-2- الإدارة والجيش

اتخذ الأدارسة لقب الإمام ولم يتلقبوا قط بالخلفاء ولم ينازعوا العباسيين الخلافة، كما أن مهمتهم ظلت دينية بالأساس وتحكيمية بين القبائل، حيث نظر إلى وجودهم كوجود ديني لقيادة الصلاة والفصل في النزاعات كما تؤكد؛ على الأقل، رسالة شكوى وجهها أحد الأمراء إلى الناصر الأموي في القرن 4هـ/10م.

بدأ التنظيم الإداري في عهد المؤسس بسيطاً، حيث كان يسير شؤون الدولة مجلس أشبه ما يكون بمجلس القبيلة يقوده إدريس ويساعده راشد وإسحاق الأوربي وشيوخ القبائل. ويتكلف بكل المهام السياسية والعسكرية والقضائية والمالية. وفي عهد إدريس الثاني تطورت الإدارة أكثر؛ بالرغم من استمرار بساطتها، وأصبحت أكثر اتساعاً ومن عناصرها:

- الوزير: عمير بن مصعب الأزدي الملجوم وبهلول بن عبد الواحد المطغري
- قاضي: عامر بن محمد القيسي
- كاتب: أبو الحسن بن عبد الملك

ويتبع الإدارة الجيش الذي بدأ قبلياً في عهد المؤسس وفي عهد إدريس الثاني ضم فرساناً عرباً.

### 2-2- العاصمة:

اشتهر الأدارسة بميلهم نحو التعمير وبناء المدن، حيث بنوا عدداً منها مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر وتامدولت وفاس غيرها، لكنها وللأسف اختفت واندثرت عدا فاس العاصمة. وقد طرح تأسيسها إشكالا كبيرا، حيث كان يعتقد أن إدريس الثاني هو الذي بناها سنتي 192 و 193هـ، إلى أن اخرج العلامة ليفي بروفنسال مقالا أثبت فيه أن إدريس الأول بنى عدوة الأندلس سنة 172هـ، بينما بنى الثاني عدوة القرويين عام 193هـ (الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز السالم ومحمد صلاح حلبي القاهرة، 1958، ص.1-50)، وأهم أدلته:

- درهمان ضربا بفاس سنتي 185 و 189هـ.
- نصوص تثبت سنة 172 تاريخاً للبناء للرازي وابن سعيد والعمري والقلقشندي ومؤرخ غرناطي مجهول من القرن 8هـ.

وتمدنت المدينة وتوسعت وزادت منشآتها وأرباضها فيما بعد، وظلت عاصمة للأدارة حتى 309هـ عندما أخرجهم منها مصالة بن حبوس الفاطمي وانتقلوا إلى حجر النسر.

### 2-3- نشر الإسلام

ننطلق من نصين لابن أبي زرع في كتاب "الأنيس المطرب" يقولان:

"فخرج غازيا إلى بلاد تامسنا، فنزل أولا مدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا، ثم سار إلى بلاد تادلة ففتح معاقلها وحصونها، وكان أكث هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية والإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يديه" (ص.20)

"ثم خرج برسم غزو من بقي بالمغرب من البربر على دين النصرانية واليهودية والمجوسية، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون بالمعاقل والجبال والحصون المنيعه، فلم يزل الإمام إدريس يجاهدهم ويستنزلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعا وكرها (...). وأباد من أبي الإسلام منهم بالقتل والسبي" (ص.21).

يظهر من النصين أن إدريس الأول وبعده ابنه كانا منشغلين بنشر الإسلام بالمغرب، وبغض النظر عن المبالغة التي يحملها النصان ففيهما جزء من الحقيقة ما دما قد عرفنا في سابق المحاضرات أن الإسلام لم يعم كل البلاد في زمان الفتح. ولكن سؤالا يطرح وهو: ألا يمكن أن تكون ثورات الخوارج قد عممت هذا المذهب وأن الأدارة إنما كانوا يحاربون هذه النحلة ولا ينشرون الإسلام لأول مرة؟ وهذا سؤال يجد شرعيته في الأحداث التي عرفتها المنطقة قبل وصولهم للحكم ووجود مذاهب مختلفة من خوارج وشيعة ومعتزلة بالبلاد. وهذا ينقلنا إلى طرح السؤال حول مذهب الأدارة هل هو شيعي أو سني؟ لا تتوفر على معطيات تحدد مذهبهم، لكن بعض الآراء تتكلم عن تبنيهم المذهب الشيعي الزيدي القريب من السنة والمعتزلة لذلك وقع التوافق بين إدريس وإسحاق الأوربي المعتزلي. وعلى كل فالمصادر لا تشير إلى اهتمام الأدارة بنشر هذا المذهب وكل ما هناك هو حرصهم على التذكير بنسبهم الشريف وحقهم في الحكم. أما يتعلق بشأن محاربة المذاهب الأخرى فلدينا إشارة من نفس المصدر تقول على لسان داود بن القاسم الأوربي أحد أتباع إدريس الثاني: "شهدت مع إدريس بن إدريس بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر" (ص.26)، واستخدام صيغة الجمع في الغزو يشير إلى تعدد الغزوات ضد بقايا الصفرية، ولكن أي منهم؟ خوارج الريف الشرقي والأوسط أو سجالماسة أو تلمسان؟ يمكن أن نقصي الثانية لأن إدريس لم يتوغل في الجنوب نحوها ونشك في الأولى لأننا لا نملك معلومات حول تدخله في الريف، بينما نعرف أنه غزا تلمسان حيث بنو خزرون وبنو يفرن الصفرية وقد نجح في إخضاعهم. لكن الصراع لن ينتهي هنا لأن الصفرية سيستمرون ويثورون جنوب العاصمة فاس في جبل مديونة بزعامه عبد الرزاق الفهري الذي احتل عدوة الأندلس وطرد الإمام على بن عمر بن محمد من المدينة كلها وأجأه إلى أوربة. وهذا الحدث يؤكد أن الأدارة حاربوا

المذاهب الأخرى خاصة الخوارج دون أن يقضوا عليهم، كما حاربوا الوثنيين خاصة برغواطة في تامسنا وسكان الجبال خاصة فازاز.

لقد اختلط في توسع الأدارسة الواجب السياسي بالواجب الديني ونجحوا؛ دون شك، في الدفع بالأسلمة خطوة أخرى إلى الأمام. واقترن ذلك بالتعريب حيث استقرت قبائل وعناصر عربية (ربضية قرطبة- عرب من المشرق- مهاجرو القيروان) بالبلاد فوسعت مجال العربية وخير ما يدل على ذلك نوعية الأسماء المتداولة والتي أصبحت كلها عربية مع أن للإسلام دوره في ذلك.

### 3-2- النشاط الإقتصادي

لا نملك معطيات دقيقة حول هذه النقطة، لكن الأدارسة وفروا بعض عناصر النجاح الإقتصادي من انتشار للأمن وتوفير للنقود (12 دار سكة) وفتح الحدود وانتشار المدن ووجود المرافق من أسواق وفنادق واستقبال لمهاجرين من أبناء المدن (قرطبة والقيروان). ورافق نشاط التجارة قيام نواة للصناعة مما وفر مادة التبادل التجاري. وساعد الأمن على نشاط الفلاحة بدورها.

وبذلك يمكن أن نقول إن شروط نمو اقتصادي توفرت خاصة في القرن 3هـ/9م دون أن نقدر على تحديد ملامحه وحجمه.

### خاتمة

كون الأدارسة إمارة نجحت في اقتطاع الجزء الأكبر من المغرب ونجحت في دعم موقف الإسلام والعروبة وساعدت على نشاط الاقتصاد، لكن أهم ما تحقق هو بداية التوحد والتجانس الحضاري لأجزاء البلاد مما مهد لتوحيده كاملا في القرن الموالي.